

النفس البشرية كما يراها العارفون

أخى :

إن النفس باعتبارها مصدر الحياة الإنسانية بخيرها وشرها لا نهاية للعلم بها ما دامت الحياة في مجراها الطبيعي بخيرها وشرها وقد علمتُ أخى أن الحكم عليها يكون بالواقع منها . فإذا كان الواقع مطابقاً للشرع موافقاً للدين فهو الخير المراد منها . وإذا كان العكس فهو الشر الذى نهى الله عنه وحذر منه . والحكم على ضوء ما علمتُ غير مملوك لأحد من الخلق فالذى يملك هذا هو الله سبحانه وتعالى وقد حدّد الله ذلك بيوم اللقاء .

ومن هنا نعلم أن كل حكم يصدر لصالح النفس قبل هذا اليوم مرذوء منقوض لأنه صدر قبل الموعد المحدد . وصدر ممن لا يملك الأمر والحكم . ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالمؤمن الحق الصادق الإيمان بالله واليوم الآخر يضع نفسه في قفص الاتهام طيلة حياته حتى يصدر الحكم بتقرير المصير يوم القيامة . ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ وَالْأَمْرُ يُؤْتَى لِلَّهِ ﴾ وكل حكم قبل ذلك فهو باطل . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فالتبئى عن التبرئة حكم من الله على عباده . وحكم الله لأبد من تنفيذه - وانسعى إلى تنفيذ حكمه سبحانه طاعة وعبادة . فإن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ أى لا أدعى تبرئتها من سوءها لأنى لا أملك ذلك . حيث لا يملك هذا إلا الله وحده الرحمن الرحيم .

فالتبرئة لها من الله لا من العبد . فمن برّأها من عباده وهو لا يزال في الحياة الدنيا فقد خالف ربه وعصى مولاه . أعاذنا الله وإياكم من شرورها وأضرارها وسيئات أعمالها . وقد علمت أن نفى التبرئة طاعة لله وعبادة له . فالذى خلقها

وسَوَاهَا وَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا أَدْرَىٰ بِحَالِهَا وَأَصْدَقُ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهَا بِمَا يَعْلَمُ عَنْهَا .
﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

ومن هنا نعلم أن الأخذ بعدم التبرئة من صفات المؤمنين وسحات المتقين ،
وشعار المقرين عملا منهم بإرادة الله ، وقياماً منهم بحكم الله .

ولذلك يضعونها في قفص الاتهام حتى يرحمها الله بالبراءة والخلاص . وهذا
هو السر فيما هُم عليه من الخوف والحزن مدى الحياة . فلا حول ولا قوة إلا بالله
العلّي العظيم .

أخى :

إن هذه اللفظة في التعريف بالنفس وهذا البيان في وصفها قضاء من الله
وقرار منه . فالعارف بالله يعيش مع نفسه في الحياة الدنيا في ثنايا هذا التعريف
الإلهي والبيان الرباني راضياً مطمئناً بقضاء الله وقراره .

وقد علمت أخى أن صفات النفس كلها خيرها وشرها تتضمَّنهما هذه الآية
الكريمة . فقد وصف الله النفس البشرية بعدة أوصاف . منها الأَمارة . ومنها
اللَّوامة . ومنها الملهمة . ومنها المطمئنة قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا .
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ
اللَّوَامَةِ ﴾ ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾
والصفة الجامعة لهذه الأوصاف قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ وَمَا أُبْرِئُ
نَفْسِي ﴾ حال المؤمن العارف ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ صفة للنفس
﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ بالتوبة والتهديب والهدى والتوفيق . وهذا مقام العمل
والأخذ بالأسباب .

﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استقرار وتمكين في المقامات والدرجات
السالفة الذكر المطمئنة بالله في رحمته وربوبيته والرجوع إليه بالاستعاذة به من
شرور النفس وأضرارها ، وصفاتها الأَمارة بالسُّوء .

وقد علمت أخى أن قول المؤمن ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ إيمان وإحساس بإلهام الفجور ولذلك يعتبر هذا القول من إلهام التقوى لأن إلهام الفجور منها لا يظهر إلا بظهور إلهام التقوى ؛ فإن إلهام التقوى هو الذى يكشف إلهام الفجور . والأخذ بإلهام التقوى يكشف حقيقة النفس وفجورها . وكلما تضاعف الأخذ تضاعف الكشف ولا نهاية للتقوى ولا آخر لمداها . ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ولذلك لا نهاية لفجورها فعلى قدر تقواها يكون كشف فجورها أو يكون ظهورها بإلهام فجورها . فقول المؤمن ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ عبودية صادقة ، وتوحيد خالص لله رب العالمين ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ تجريد وتجرد وفناء وفقير وافتقار ، وذلة وخضوع وخشوع لله ، وانكسار وتفويض ، وتوكل واعتماد على الله ولجوء إليه ، ورغبة صادقة خالصة فى السلامة والنجاة منها . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ استعانة بصفات الربوبية عليها كأن تقول أيها المؤمن : اللهم إنك تعلم أنه لا خير من نفسى التى بين جنبى . فهى كما خلقتها وسويتها وألهمتها فجورها لا تزال كما هى . فألهمنى الرشد والصواب ، وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها فإنه لا خير لى إلا منك فإنك رى الغفور الرحيم .

وقد علمت أخى أن قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ بعد وصفها بالسوء يفيد أن الرحمة هى الإحسان الذى هو ضد السوء منها . إلا ما رحم رى بالتوفيق والسداد . والهدى والرشاد . إلا ما رحم رى بالتزكية والتطهير . ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ إلا ما رحم رى بالتبرئة والعفو والمغفرة ، إلا ما رحم رى بالتجاوز . والتكفير للسيئات والذنوب . إلا ما رحم رى بالتولية والنصر والكشف والنور ؛ لأن الله هو الرب الغفور الرحيم . فقول المؤمن ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ مقام التوحيد يقابله قول المؤمن الحق : سبحانه الله تنزيهه سبحانه عن النقص وتمجيده بصفات ربوبيته ، وتوحيده فى ألوهيته ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ مقام العبودية لله والاعتراف بالنقص والحاجة إلى الله . وفى نفى الكمال عن النفس والاستغناء عنها إثبات الفقر إلى الله وصدق الافتقار إليه . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ مقام التوكل والتفويض بالاعتماد عليه ، وإسناد الأمر

إليه مع الأخذ بصفات التَّريب ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مقام الطمأنينة .
الكاملة التامة بالله تبارك وتعالى وبكل ما ذكر من صفات النفس . ﴿ الَّذِينَ
آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

وقد علمت أخى أن قوله سبحانه وتعالى مخاطباً النفس المطمئنة ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الآيات يراد بهذا الخطاب النفس التى اطمأنت بمعانى الآية
الكريمة السالفة الذكر واطمأنت بشهود العجز عن التبرئة إيماناً بقوله تعالى :
﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ اطمأنت على اقتران صفة السوء بها . اطمأنت على أن
النجاة والسلامة من شرورها وأضرارها بفضل الله ورحمته . اطمأنت على أن
المغفرة والرحمة من صفات الله الحق . اطمأنت طمأنينة كاملة بصفات الله
وصفات النفس كما وصفها الله وذكرها .

وقد علمت أن من بلغ هذه الدرجة من الطمأنينة الكاملة الثابتة فإنه
بمقتضاها يرجع إلى ربه فى جميع أموره وشئونه . وفى كل حركة وسكون
ارجعى إلى ربك راضية بربوبيته عليك فى كل ما منه إليك ؛ فإنه بذلك يرضى
عليك ، ويدخلك فى حظيرة العبودية فى الآخرة فتدخل جنته التى أعدها
للمتقين من عباده . ﴿ فَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِي وَادْخُلْنِي جَنَّتِي ﴾ .

فانظر أخى وتدبر ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ .

وقد علمت أخى أن قول المؤمن : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ الآية نهاية
مقامات العبودية فإنه لا يتَّهم نفسه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من عرف
ربه ، ومعرفة الله لا تكون إلا بالتقرب إليه والقرب منه ، وذلك لا يكون إلا
بالمجاهدة والمكافحة . فهكذا أخى حياة المؤمن الحق . سلسلة من الجهاد حتى
يلقى الله ربه فالحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ولتعلم أن
نهاية العارف بالله الوقوف عند هذه الآية الكريمة وقد ذكرها الله فى كتابه على
لسان سيدنا يوسف عليه السلام وهو النبى ابن النبى الشريف ابن الشريف .
الرسول الأمين . فانظر أخى وتدبر ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ وما دام القائل
هو سيدنا يوسف ، ومقامه معلوم معروف فبالنسبة إليه بداية وهى بالنسبة
للعارفين نهاية حيث نهاية الأولياء المقربين بداية النبيين والمرسلين .

وقد علمت أن الولي المقرب حياته في الدنيا بين قوله سبحانه ﴿ وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي ﴾ وبين ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإنه كما يؤمن بصفات الله ويرجو مغفرته ورحمته ، فكذلك يؤمن بفقره وافتقاره إلى مولاه . وذلك نتيجة علمه بنفسه التي بين جنبيه . فهو بين الخوف من شرور نفسه . وبين الرجاء في رحمة مولاه إلى أن يلقاه . فوالله إن العارف بالله يزداد تباعاً في اتهام نفسه على قدر إيمانه بربه الذي وصفها بالسوء فإنه سبحانه وتعالى ذكرها أمرة بالسوء الذي هو ضد الحسن والأحسن . فالسوء هو الفعل القبيح . والسيئة ضدها الحسنة . فالسوء من النفس كل عمل لا تحمد عقباه في الأخرى . والسوء كل ما يجلب عليها غضب الله ويحقق عذابها . والسوء وصف مطلق . وربما كان إلهام الفجور عموماً من قبيل السوء لأنه ما لم يكن تقوى فهو سوء بلا شك . والسوء الشر والضر سواء أكان على ذات النفس الأمانة أم على الغير .

وقد علمت أخى أن كل ما يبعد العبد عن ربه فهو سوء وكل ما يشغله عنه سوء وكل ما لا ينتفع به المؤمن في أخراه فهو سوء بلا شك . والسوء عموماً ضد الحسن وضد الخير . ولا عبرة بخير الدنيا إذا لم يكن خيراً في الآخرة . فالدنيا فانية زائلة . والآخرة باقية خالدة . فمن رحمه الله بدل سوءه حسناً فمن عرف نفسه بالسوء لا يعترف لها بالحسنة فإذا وقع منها حسنة نسبها إلى الله شاكراً حامداً وذلك من فضل الله على عباده . فالحمد لله والشكر له .

أخى :

إن ما بينته لك عن النفس الأمانة يكفي هذا القدر . ولنقف معاً مرة أخرى عند قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الآيات الكريمة ليعلم أخى وإخواني جميعاً أنه ليست العبرة في الحقيقة بطمأنينة النفس : إنما العبرة بخطاب الله وندائه عبده بقوله عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ فالخطاب منه سبحانه هو الذى ينشئ الطمأنينة ويكسب النفس صفتها ومعانيها . فإنه لا طمأنينة أبداً للنفس المؤمنة إلا بسماع هذا الخطاب من المولى عز وجل . ولما كان الخطاب من الله قد وقع فعلاً في عالم الأرواح حين خلقها

فالأرواح التي سمعت هذا النداء حين كانت مجردة من الأشباح في عالم الغيب حين تتجرد مرة أخرى من الأشباح والعوالم الأرضية أحسبها تسبح في جو الخطاب والنداء بصورة لا أستطيع أن أصِفها لك . /

أخى : إن خطاب الله عز وجلّ ونداءه من كلامه سبحانه . وكلامه من صفاته عز وجل . وصفاته قائمة بقيامه . فهو الأول والآخر . والظاهر والباطن . فالخطاب قائم والنداء كذلك تسمعه الروح المهيأة للسمع كما سمعته من قبل حين خوطبت وهى في عالم الغيب . فإنه لولا هذا الخطاب وأثر النداء في الأرواح قبل ذلك ما استطاع المؤمن أن يتغلب على الشيطان الذى يجرى منه مجرى الدم . ويشاركه في المال والولد ، ويجلب عليه بالخيال والرجل قال تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

فاعلم أخى أن من قدر الله له أن يكون من المخاطبين بهذا النداء العظيم فهو من الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ .

ومن هنا تدرك أن الله سبحانه وتعالى قررّ المصائر حينما قال : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ نعم قرر المصائر يوم أن خلق النفوس وسواها . قال رسول الله ﷺ : « رفعت الأقلام . وجفت الصحف . وكل مُيسَّر لما خلق له » وحسبك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ فالنفوس الملهمة بالفجور هى التى أعدّ الله لها النار مصيرا ونهاية . والنفوس الملهمة بالتقوى هى التى أعدّ الله لها الجنة مصيرا ونهاية . ولما كانت التقوى أفعالا وأعمالا قال تعالى مشيرا إلى مقر أهل الفجور مخاطبا إياهم : ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

وكما علمت أخى مما سبق أن الفجور هو ضد التقوى وبذا يتأكد أن كل عمل لا يكون تقوى فهو داخل في نطاق الفجور . ويصح أن نفسير التقوى

بأنها : القيام بالمأمورات . والانتفاء عن المنهيات . بمعنى أن كل عمل يقع من الإنسان بإرادة النفس سواء أكان قولاً أم فعلاً أم حركة أم سكوناً . حساً أو لُحْساً . إشارة أو إيماء إذا لم يكن تنفيذاً لأمره سبحانه وتعالى واتباعاً لرسوله ﷺ فإنه خارج عن دائرة التقوى ونطاقها المحدود : لذلك فإنه يدخل تلقائياً في دائرة النجور .

ولما كان الإنسان لا يخلو من عوامل النجور والأسباب المؤدية إليه بمقتضى التصميم الرباني الذي يتميز به عن سائر المخلوقات الأخرى كالملائكة والشياطين أمره الله سبحانه وتعالى ألا يركن إلى نفسه . ولا ينزع دائماً إلى هواه . وجعل السعادة كلها في إلهام التقوى ﷻ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ .

وإلى هنا يكفي هذا القدر من القول .

أستودعكم الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *